« الحب .. يتنفس رصاص»

هنـاك علـى المـدى الغربـى تمـوت الشـمس ، الليـل يزحـف بـكل مافيـه مـن وحشـة وصمـت ، هـدوء طويتـه التحفـز والرعـب ، بـين الفينـة والفينـة تصـك أذنـى صرخـات الأشـباح الخضـر وهـى تدمـدم، الـكلاب تطلـق نباحهـا لدقائـق ثـم .....؟ ، يعـود الهـدوء والقلـق ، الطيـور والحيوانـات جيفـوا مـن حولـى ، الغربـان لايكـف لهـا نعيـق، الأعـين المكروبـة تتـلألأ فيهـا قطـرات الدمـع ، أتألـم ، أتعثـر كلمـا حاولـت المسـير، أجسـاد الأحيـاء تـكاد لاتفرقهـا مـن سـواد الليـل أصـوات غطيطهـم ديـدن السـكون .

مـرة أخـرى أحـاول الانسـلال بجسـدى وأفكارى ، كنـت أحيـا فـى دار كبيـرة ، علـى إحـدى حوائطهـا وشـيت اسـم أخـى بقطـرات من الدم القـان ، دمـى ، لحقـت بـه شـقيقتنا الكسـيحة ، تركنـا المنـزل كرهـاً، أنقاضـاً بـلا أمـل ، دموعـاً بـلا أعـين ، اضطررنـا إلـى اللجـوء هاهنـا، القـدس تلـوح مـن بعيـد ، علـى مشـارفها انسـلت قطـرات مـن النـور الباهـت ، ترامـت خلفهـا أشـباح منـازل قـد دفنـت فـى ملابـس سـود ، يـد أبـى المعروقـة تشـير ناحيـة الشـرق ، « يبـدو محزونـاً فـى الوقـت الـذى عاصـت فيـه وجهـى تقاطيـب الغضـب : مسـتحيل ! ، آليـت علـى نفسـى ألا أفعـل ، اتسـعت الشُّـقة بيننـا ، صرخـت بوسـع طاقتـى لمـاذا

لانتفق !، وبقيت وحيداً ، الليل يبدى معاندة غير مكترث لما يدور فى جوفه ، الشمس أضحت رهينة فى كنفه المشئوم ، أراقب كل ذلك بينما زفرات غضبى تتلاحق وكأنها الأمواج ، وعن كثب ارتضيت صخرة رابية ، حاولت الاسترخاء ، غمست رغباتى فى طلل من الصبر ، أشعلت لفافة من التبغ الأمريكى الفاخر ، كنت قد وجدتها بجوار جندى صريع ، ومضاتها ترتعش فى الظلام تصاعدياً تنازلياً ثم تصاعدياً ، ألوكها بين شفتى بعصبية ، أمنع عنها الخروج فتخوننى إرادتى ، أسعل بشدة ، ألمح الدخان يرسم جنياً أسطورى الهيئة ، أقذف بها تحت قدمى ، أسحقها وليكن مايكون .

أغمضت عيناى ، طيفها يتسلل إلى مخيلتى تدريجياً ، أدفعه بلاجدوى ، يتملكنى ، هى أمريكية الصنع أيضاً ، لها جمال ونكهة يفوقان أفخر أنواع السجائر وكل الأشياء التى تذهب بالعقل ، وتخدر الحواس تماماً ، معها أنسى أننى من الموتى ، نلزم الصمت مادامت شفاهنا تتناجى ، أتراجع ، يلحون علىّ ، لاشأن لك بها ، يذكروننى بالشئ الذى لايغيب عن خاطرى البتة ، أصرخ منهاراً :

- لم أنس أخى أو أختى ، بل اخوانى واخواتى جميعاً فى القلب والعقل ، ولكنى لا أستطيع ، لا أستطيع .

أطالع صوره الرهيبة على صفحات الجرائد والمجلات ، وجدتنى ضئيلاً أمامها فمابالى بالأصل ، تمتمت هامساً الموساد!، ارتعبت ، تخلفت عن مقابلتها مرة ، مرتين ، وثلاث ، فوجئت بها فى المكان الذى لايعرفه أحد فى العالم غيرنا ، ملأت ابتسامتها جوانحى غبطة ، ساءلت نفسى أيهما غالب «العداء» أم «الحب»؟، همست جميلتى بشفتيها الحمر فى أذنى :

- أحبك .

لم يبهرنى تصرفها ، أمسكت يدها ، ندت عنى ارتعاشة ، رميتها بما أضمره فى نفسى :

- أمؤمنة بقضيتى ؟ .

- بل مؤمنة بك .

نظراتى المتفرسة اغتصبت إلى شفتيها الطريق ، أردفت قائلة:

- لايهم من تكون ، لايهم من أكون ، الحب هو الأهم .

لم أصدق نفسى ، تساءلت : « ألَه حقاً مثل هذه القدرات ، أيذيب الفوارق ، وينسف الحدود والعداوات ، ولكن .....».

انصرفنا على أمل اللقاء ، تماوجت فى باطنى الكثير من الأحاسيس المتباينة ، فجأة أشعر بالندم ، وأقرر الانسحاب ، ومرات أتنسم إشراقات الأمل اللواح : « لِمَ لا فمن يؤمن بك يؤمن بكل شئ يخصك ، هيه هيا أيها المقدام» .

غمزنى صديقى ، رفت على جانب شفتيه ابتسامة غامضة، تمتم :

- جميلة ، رائعة .
- أحقاً ؟.
- أجل ، لو أنها فى قبضتنا .
- قبضتنا ؟! .

صدمتنى رغبته ، غضبت ، كتمت ثورة عنيفة اندلعت فى داخلى ، لكزنى قائلاً بحدة بالغة :

- لاينبغى أن يكون لك أكثر من حب،لاتضيع صيدنا الثمين.

كلماته قاتلة ، توارى عنها قلبى وعقلى تارة واحدة ، تحيرت ، تساءلت : «حب وغدر ؟!» ، محال ، ليته كان يهذى .

الحقائق المبهمة تزعجنى دائماً ، ويقتلنى أن أتخذ موضع المقامر فى ساحة الرهان ، عرائس الليل تتراقص أمام عينى ،

طوعت البنان نحو إحداهن ، أصبتها فى مقتل ، افترشت صرختها جنبات صدرى ، دموعها ساحت على وجنتى ، آلمتنى ، قاومت رغبة برغبة ، إنفلت فى استخذاء ، لمحته وهو يبصق فى ظهرى .

اتفقنا لا أذكر متى ، قبض على كلتا يديه القويتين ، دق بهما الهواء ، مزقه ، هتف صارخاً :

- اليوم سيفرج عنه وعن الكثير من إخواننا ، أكيد .

جاوبت ابتسامته بأخرى لاهُوية لها ، دلفنا معاً فى خفة ظبيين بريين نحو المكان الذى تواعدنا على اللقاء فيه دائماً وأبداً ، كنا نحلم ونمنى أنفسنا بذلك ، تمتمت ذهبية الشعر قائلة وعيناها الخضراوان لاتبرحانى لحظة :

- لنكره كل شئ حتى نحب أنفسنا أكثر .

دمعت عيناى ، تنهدت شاهقاً ، انتبه إلىّ ، ضرب صدرى بصفحة يده التى لم تبرأ بعد من رصاصة قناص مكير ، تأوهت، كتمت صراخى :

- أوجعتنى .

عيناه تبرقان شذراً :

- اثبت ، لاتكن ضعيفاً .

امتثلت لأمره رغم كل شئ ، صوبت الطرف نحو ضالتنا المنشودة وقلبى الخفقان ينتفض ثائراً بين جنبى ، اللحظات تتابع ملتهبة ومشحونة بالتوتر الرهيب ، أتقدم على مضض ، أرجع القهقرى مكلوماً مضطرباً ، يشدنى للأمام ، همساته الصارخة تدفعنى نحوها دفعاً .

حين تقدما معاً ببطء شديد ناحية الهدف ارتاعا ، صدما بهم !، الجو ملبد برائحة ما كريهة ، صرخ فيه صاحبه أن يلوذا بالفرار بسرعة ، جاوبت صرخاته الأصداء الفائرة :

- كمين !! .

انشقت عن شفتيها الداميتين ابتسامة هازئة للغاية ، الرصاص يتطاير من كل اتجاه ، فغرت فمى دهشة ، وهامته تميل للأمام، وتتراجع للخلف ، هوى فوق ظله الدامى ، احتضنه طويلاً، ثم ذابا معاً فى الثرى .

الموت ينظر نحوى شذراً من فوهة بندقيتها الآلية ، انطلقنا معاً فى سباق مع الزمن .

●●●